صيد الاسفنج

في خليج المكسيك

لم يُعرف بعد على وجه التحقيق متى بدأت صناعة صيد الاسفنج في خليج المكسيك بأميركا الشمالية ، بيد أنه كانت هناك حوالي سنة ١٨٧٠ ميلادية قوارب تغوص خلال الخليج في كلٍّ منها رجلان أحدهما يجذف والآخر يقوم بمهمة التحديق في داخل قاعه من زجاج يضعه على سطح الماء حتى اذا لمح شيئاً من الاسفنج بادر بتدلية عصاً طويلة مثبَّت في طرفها خطّاف تصل الى حيث الاسفنج موجود فيجتذبه بها .

وما أن حانت سنة ١٨٩٠ ميلادية حتى فكر المدعو « جون شيني جديًّا في هذه الثروة المائية وأخذ في ارسال القوارب زرافات بالقرب من شاطئ « فلوريدا » الغربي لصيده بنفس الطريقة وداب على العمل فازدهرت هذه الصناعة ونمت ومن ثمَّ تأسست بورصة الاسفنج لتنظيم تجارته وارتفعت أثمانه لغلاء أسفنج البحر الأبيض المتوسط .

ولما وثق « جون شيني » المذكور من وجود الاسفنج بهذا الخليج بكميات وافرة حيث يمتد نحو خمسين ميلاً من الشاطئ آثر صيده بطريقة الغوص في الماء فتفاوض مع المستر « جون كوريكوبس » في الأمر . وهو أول يوناني أقام في « فلوريدا » فأشار عليه الأخير باستدعاء نفر من غواصي جزر بحر إيجيه ببلاد اليونان فحسن ذلك الرأي لديه وصمم العزم على تنفيذ الفكرة وكان ذلك في سنة ١٩٠٥ . فأرسل اليوناني واستدعى ثلاثة من النفر أمين فجاءوا بعائلاتهم الى « فلوريدا » وأقاموا في مدينة « تاريون لسبرنجس » على خليج المكسيك وشرعوا في العمل توًّا .

واليوناني بطبعه شغوف بركوب البحر الذي يرى فيه أسباب معيشته كما يرى فيه أيضاً ميداناً للبطولة ورمزاً للفتوة وإليه يرجع الكثير من معتقده الديني

وهنا بدأت نهضة جديدة لهذه الصناعة . ومع مرور الزمن اجتذب هؤلاء اليونان إخوانهم في الهيئة من جزر اليونان فأقبل هؤلاء أيضاً بقضهم وقضيضهم وأقاموا بتلك المدينة وكوّنوا مستعمرة يونانية حتى بلغ عددهم ثلاثة آلاف وعاشوا هناك محتفظين بكل مظاهر قوميتهم وعاداتهم من لغة ومأكل وملبس وعبادة وغير ، ذلك ولهم كنيستهم على اسم القديس نقولا فضلاً من الصلاة العائلية التي تقام في كل منزل لأن حياة اليوناني وثيقة الصلة بعقيدته الدينية .

وتعمل سفن الغوص في مياه يتفاوت عمقها من ثلاثين الى مئة قدم . وتقوم السفينة في الموسم الواحد برحلتين طويلتين تعود في نهاية كل منها الى الشاطئ لتفريغ ما التقط من استنج ولأخذ ما تحتاج إليه من مؤونة وغيرها .

والغوّاص شغف عظيم بمهنته . ومن مأثور القول عندهم « أن من مارس الغوص عامين ظلّ غواصاً طول حياته » — ويستطيع من بلغ السادسة عشرة من العمر البدء بالغوص حتى يجاوز الستين قليلاً ثم يعتزل العمل .

ويطول موسم العمل في الخليج بسفن الغوص الى تسعة شهور سنوياً يصرف منها الغوّاص نحو شهرين تحت الماء متنقلاً بقدميه في قاع الخليج وهو في شبه ظلمة .

وجهاز الغوص هو عبارة عن ثوب من القماش المزدوج العازل للماء ومبطن بطبقة من المطاط (الكاوتشوك) فيلبسه الغوّاص ويُحكم ربطه حول معصميه بالمطاط أيضاً . ثم يُغطي الرأس بكرة من المعدن تُثبّت بمسامير محكمة ، وبهذه الكرة طاقتان من الزجاج السميك ينظر الغوّاص من خلالهما ما حوله وفي أعلى الكرة أنبوب طويل يتصل بالسفينة لامداده بالهواء اللازم — وجهاز على ما وصفنا ليس بالشيء الخفيف الذي يتسنى للابسه التحرك به بسهولة ويُيسّر فهو يزن نحواً من ١٨٨ رطلاً .

فمتى حان وقت الغوص يقوم زملاء الغوّاص بمعاونته على لبسه ثم ينحدر فوق كتفيه أثقالاً من الحديد ويهبط رويداً رويداً حتى يستقر بقدميه في قاع الخليج وهناك يشعر بضغط الماء . وكلما احتاج الى هواء جديد أمال رأسه الى الوراء فيضغط على زرّ بداخل الكرة المعدنية فينسرب الهواء الى داخلها بواسطة الأنبوب بالقدر المطلوب .

ويرى الغوّاص المرئيات حوله ملوّنة بلون أخضر أو أزرق داكن يسترعي النظر . وهو لا يسمع لوقع قدميه على الأرض صوتاً بالرغم من ان حذائيه يزنان ٣٥ رطلاً . وفي هذا الكون الرهيب يدل الغوّاص جادًّا في طلب الأسفنج . وقد يسير ميلاً دون أن يعثر على أسفنجة تستحق الصيد . لأن القانون يقضي بمنع صيد الأسفنج الصغير الذي يقل محيط الواحدة منها عن خمس بوصات — وأحسن الأسفنج ما بلغ محيط الواحدة منها ١٦ الى ١٨ بوصة .

* * *

ويتكوّن الأسفنج من حيوان صغير وينمو نموًّا بطيئاً جدًّا في الشهور الأولى ثم يزداد اتساع محيط الأسفنجة بمقدار بوصة شهريًّا . ويقتضي ان يبلغ مدى نظر الغوّاص في الماء ست أقدام على الأقل، غير انه يستطيع في الأيام المشرقة الرؤية الى مسافة تتفاوت ما بين ٣٠ الى ٥٠ قدماً ويمكنه أحياناً رؤية قاع سفينته التي تعلوه مائة قدم إذا كان الماء أيضاً صافياً

ويتعرّف رفقاؤه الذين في السفينة على مكانه برؤية فقاقيع الهواء المتصاعدة منه ، فتلمحه الى حيث يتجه . ويحمل الغوّاص بيده كيساً من الشبك وبالأخرى خطّافاً ثقيلاً ذا ثلاث شعب يجذب به الأسفنج المتشبّث بالصخور ويضعه داخل الكيس حتى اذا امتلأ أشار الى رفقائه بالسفينة فيرفعونه ويدلون له بغيره وهكذا . واذا حصلت سفينة ما على نحو ١٥٠ الى ١٨٠ قطعة منه عدَّ ذلك فوزاً .

وناهيك بمحاسن الطبيعة ومفاتن البحر . فهنالك ممكن سابحة تحدّق الغوّاص بعينين مجلاوين وكأنها تقول له من أنت وما شأنك وكيف أصبحت الخدور وما دا تبتغي من وراء مجوالتك . وثمة نوع آخر من السمك يعترض سبيل الغوّاص الى غير ذلك من مختلف حيوانات الماء .

ويلج الغوّاص أحياناً شبه مغاور مظلمة يتمّ ظاهرها على التداعي والانهيار غير إنها صلبة لا تقوى على النيل منها المعاول ، أما تكوينات المرجان خدّث عنها ولا حرج . فهي أشجار منظومة في جبين الصخر . وأينما سرّحتَ الطرف ترى الجمال مجسماً وشتّته يد

الطبيعة خلواً من زينة أو صناعة — نباتاته وعاد وهضاب وأحراج وبساتين على مثال ما يُرى على سطح الأرض . والماء المحيط بكل ذلك هو بمثابة الغيم أو الضباب يغشى كل هذه المرئيات فيكسبها روعة وجلالاً . وفي ناحية أخرى جبل شامخ لم يحاول تسلقه أحد ولم تطأه قدما انسان ، ولم تعصف به قط ريح . هو بكرٌ بين الجبال ممتنع كعبة الأسد له سحر يلعب بالألباب ويأخذ بمجامع القلوب . تراه وكأنه يتحرك ويموج غير أنه ثابت الأركان وطيد البنيان .

كل هذا لا يشغل الغوّاص عن أداء مهمته ، أو يلهيه عن خطورة موقفه ، فإن عينه لا تفتأ تجوس خلال الصخور والآكام باحثة عن الاسفنج الذي هو هدفه الوحيد وضالته المنشودة ، والذي يرى وكأنه وسائد من المطاط داكنة اللون لزجة الملمس مائلة بالصفر .

واذا شاء الغوّاص تسلق بعض المرتفعات فتح صمام الهواء الذي بداخل كرة الرأس برهة فيتسرب جانب من الهواء الى الداخل فيخف وزنه ويطفو قليلاً وهذا مما يساعد على ارتقاء المرتفعات .

وثمة خطر يتعرّض له الغوّاص وهو في عمق الماء ذلك هو القرش أو كلب البحر فهذا الحيوان يشم رائحة الدم فينجذب اليه . واذا فإن قانون الغوص يقضي على الغوّاص لدى رؤيته لهذا الحيوان اخفاء يديه الجاريتين تحت ابطيه حالاً ، وأن يهم بالصعود ولكن ببطء خشية انقضاضه عليه اذا بدت منه علائم الخوف . وعلى أثر صعوده الى السفينة يبادر رفقاؤه برفع الأثقال عن كاهله ونزع جهاز الغوص عنه تدريجياً لأن جسمه يكون مغموراً بالعرق اذا كان الفصل صيفاً . وقد تبدو عليه علائم الاعياء الشديد . ثم يستبدل ملابسه المبللة بغيرها . وكثيراً ما يخرج من مألوف عادته على أثر صعوده من الماء فيوجه الى زملائه سيلاً من التعنيف الشديد لسبب قد يكون تافهاً غير أن أحداً منهم لا يجرأ أن يجيبه بكلمة لعلمهم بما هو مستهدف له من المخاطر في كل لحظة . ولكنه لا يلبث أن يستجمع شعوره ويثوب الى رشده .

وكثيراً ما يصاب الغوّاص بشبه كساح أو شلل وقتي اذا لم يتح له الوقت الكافي لراحة بين فترات الغوص ولصعوده من الماء بسرعة كبيرة .

وكلما صعد غوّاص من الماء نزل آخر مستخدماً نفس جهاز الغوص . ويستطيع الغوّاص النزول الى جوف الماء من ثلاث الى ست مرات في اليوم الواحد تبعاً لحالة الطقس وعمق المياه . أما مدة مكثه فتتفاوت من بضع دقائق الى نصف ساعة أو أكثر .

ومحظور على الغواص تناول أي طعام أو ماء طول نهار العمل الا مقادير من القهوة المركزة . فاذا انتهى يوم العمل وأعدّ له الطعام تهافت عليه تهافت الجياع على القصاع .

ومتى انتهى اليوم وآذنت الشمس بالمغيب انصرف الجميع الى اللهو والطرب على أصوات النموع التي تتجاوب مع ملعان الكواكب . وأدير الراديو لسماع الموسيقى والأخبار وتمسي السفينة وكأنها جزيرة صغيرة تصح بمختلف الأصوات وتترنح بالأغاني والأهازيج حتى اذا قضوا جانباً من الليل انصرفوا الى النوم بعد أداء فرض الصلاة الجامعة .

والغوّاص هو الشخص الممتاز بين رجال السفينة نظراً الى نوع عمله وخطورته .

* * *

أما الاسفنج المستخرج الذي يكون منلفاً بطبقة هلامية كالطلاء فيوضع أكواماً ويغطى بقماش كثيف ويترك زمناً لينضج على حد تعبيرهم . وبعد أن يجف يشقق هذا الغلاف ويتساقط بعضه . ثم يستعينون على نزع الباقي بعدى قصيرة . وبعد ذلك يوضع في أواني بها ماء وملح ويعالج حتى يتنقى من المواد الغريبة وينظم عقوداً في خيوط ويعلق في الهواء ليجف ويزداد نقاوة .

وبعد ذلك يرسل الى مورسة الاسفنج التي تنعقد مرتين في الأسبوع لبيعه . وصيد كل سفينة يوزّع ثمنه على رجالها حصصاً متفقاً عليها . فللغوّاص أربعة أنصبة ونصيبان لكل من سائر العمال . أما الربان فله نصيب أوفر .

وللاسفنج درجات متباينة تبعاً للنعومة والمتانة ومقاومة الضغط وقوة الامتصاص للماء واللون وبعض ميزات أخرى

أمين عبره
موظف بوزارة الزراعة سابقاً

من الانجليزية بتصرف